بنته الصَّغيرة[(١)]

ـ ١ ـ

فرغ أبو يحيى مالك بنُ دينار ، زاهدُ البصرة ، وعالمُها من كتابة المصحف ، وكان يكتُب المصاحف للنَّاس ، ويعيش ممَّا يأخذ من أجرة كتابته ؛ تعفُّفاً أن يَطعَم إلا من كسب يده ، ثمَّ خرج من دارِه وجْهُه المسجدُ ، فأتاه ، فصلَّى بالنَّاس صلاةَ العصر وجلسوا ينتظرونه ، واستوى هو قائماً ، فركع ، وسجد ما شاء الله حتَّى قضى نافِلته ، ثمَّ انفتل من صلاته ، فقام إلى أسْطوانته[(٢)] التي يستند إليها ، وتَحلَّقَ النَّاسُ حوله جُموعاً خلف جموعٍ ، خلفَ جموعٍ ، يذهب فيهم البصرُ مرَّة هنا ، ومرَّة هنا من كثرتهم ، وامتدادِهم ، حتَّى تغطَّى بهم المسجد على رُحْبه . ومدَّ الإمام عينه فيهم ، ثمَّ أطرق إطراقةً طويلةً ، والنَّاسُ كأنَّ عليهم الطَّيرَ ممَّا سكَنوا لهيبته ، وممَّا عجِبوا لخشوعه ، ثمَّ رفع الشَّيخ رأسَه وقد تندَّتْ عيناه[(٣)] ، فما نظر إليهم حتَّى كأنمَّا اطَّلعَ على أرواحهم فجرٌ رَطْبٌ من سِحْر ذلك النَّدى :

وبَدَرَ[(٤)] شابٌّ حَدَثٌ ، فسأله : ما بكاء الشَّيخ ؟ وكان قريباً يجلس من الإمام في سَمْت بصرِه[(٥)] ، فتأمَّله الشَّيخ طويلاً يقلِّب فيه الطرْفَ كالمتعجِّب ، ولبثَ لا يجيبه كأنَّما عقِد لسانُه ، أو أخذته عن نفسه حالٌ ، فما يُثبتُ شيئاً ممَّا يرى .

وازداد النَّاس عجباً ؛ فما جَرَّبوا على الشَّيخ من قبلها حَصراً[(٦)] ولا عِيّاً[(٧)] ، ولا قطَعَه سؤال قَطُّ ، ولا تخلَّف قطُّ عن جوابٍ ؛ وقالوا : إنَّ له لشأناً ، وما بُدٌّ أن

---

(١) انظر « عود على بدء » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .
(٢) كان العلماء والرواة يجلسون إلى أساطين المسجد ، وهي أعمدة ، كما بالأزهر إلى عهدٍ قريب . (ع) .
(٣) « تندت عيناه » : أصابهما الندى ، والمراد : الدمع .
(٤) « بدر » : أسرع ، وعجل .
(٥) أي : أمامه في الخطِّ ؛ الذي يمتدُّ فيه البصر . (ع) .
(٦) « حصراً » : الحصرُ : العيُّ في المنطق .
(٧) « عياً » : العي : العجز عن بيان المراد .

تكونَ من وراء حُبْسَتِه[1] شِعابٌ في نفسه تَهْدِر بِسيْلها ، وتعتلج ، فما أسرعَ ما يلتقي السَّيلُ ، فيجتمعُ ، فيصوَّبُ إلى مجراه ، فيَتقاذَف .

وتبسَّم الإمام ، وقال : أما إنِّي قد ذكرتُ ذِكرَى ، فبكيتُ لها ، ورأيتُ رؤيا ، فتبسَّمتُ لها ؛ أمَّا الذِّكرى ، فهل تعلمون أنَّ هذا المسجدَ الَّذي يَفهَقُ[2] بهذا الحَشْدِ العظيم ، وتقع فيه المدينةُ لكلِّ أذانٍ ، وتطير . هل تعلمون : أنَّه خلا قطُّ من النَّاس ، وقد وجَبَت الفريضة ؟ قالوا : ما نَعْلمه .

قال : فقد كان ذلك لعشرين سنةً خَلتْ في موت الحسن[3] ، فقد مات عَشيَّةَ الخميس ، وأصبحنا يومَ الجمعة ، ففرغنا من أمره ، وحملناه بعد صلاة الجمعة ، فتبعَ أهلُ البصرة كلُّهم جنازتَه ، واشتغلوا به ، فلم تُقم صلاةُ العصر بهذا المسجد ، وما تُركتْ منذ كان الإسلام إلا يومئذٍ ! ومثل الحسن لا تموت ساعةُ موته من عُمرِ مَنْ شهدَها ، فذلك يومٌ عجيبٌ قد لَفَّ نهارُه البصرةَ كلَّها في كَفنٍ أبيض ، فما بقيت في نفس رجلٍ ، ولا امرأةٍ شهوةٌ إلى الدُّنيا ، وفرغ كلُّ إنسانٍ من باطله ، كما يَفرغ من أيقن أن ليس بينه وبين قبره إلا ساعة ؛ وظهر لهم الموتُ في حقيقةٍ جديدةٍ بالغةِ الرَّوْع ، لا يراها الأبناءُ في موت آبائهم ، وأمَّهاتهم ، ولا الآباء ، والأمَّهاتُ في موت مَن وَلدوا ، ولا المحبُّ في موت حبيبه ، ولا الحميمُ[4] في موت حميمه ، فإنَّ الجميع فقدوا الواحدَ الَّذي ليس غيرُه في الجميع ؛ وكما يموت العزيزُ على أهل بيتٍ ، فيكون الموتُ واحداً وتتعدَّد فيهم معانيه ، كذلك كان موتُ الحسن موتاً بعَددِ أهل البصرة !

ذاك يومٌ امتدَّ فيه الموت ، وكَبُرَ ، وانكمشت فيه الحياةُ ، وصغرتْ ، وتحاقَرت الدُّنيا عند أهلها ، حتَّى رجعت بمقدار هذه الحفرة ؛ التي يُلقى فيها الملوكُ ، والصَّعاليك ، والأخلاطُ بين هؤلاء وأولئك ، لا يَصغر عنها الصَّغير ،

---

(١) « حبسته » : الحُبْسَة : ثقلٌ في اللسان يمنع من الإبانة .
(٢) « يفهق » : يمتلىء حتى لا يكاد يتَّسع للحضور .
(٣) هو الحسنُ البصريُّ الإمام العظيم ، وسيأتي وصفه ، ولد سنة (١٥) للهجرة ، وتوفي سنة (١١٠) ؛ وقد توفي مالك بن دينار ، شيخ هذه القصة في سنة (١٣١) ، فيكون تاريخ القصة في سنة (١٣٠) . (ع) .
(٤) « الحميم » : القريب الذي تودُّه ويودُّك .

ولا يكبرُ عنها الكبير ؛ لا بل دون ذلك ، حتَّى رجعت الدُّنيا على قدر جيفةِ حيوان بالعَراء ، تنكشف للأبصار عن شَوْهاءَ نجِسة ، قد أَرَمَّت[١] لا تطاقُ على النَّظر ، ولا على الشَّمِّ ، ولا على اللَّمس ؛ وما تتفجَّر إلا عن آفةٍ ، وما تتفجر إلا لهوامِّ الأرض .

تلك هي الذِّكرى ؛ وأمَّا الرُّؤيا ؛ فقد طالعتني نفسي من وجه هذا الفتى ، فأبصرتُني حين كنتُ مثلَه يافعاً مُترَعرِعاً داخلاً في عصر شبابي ، فكأنَّما انتبهت عيني من هذه النَّفس على فاتكٍ خبيثٍ كان في جناياته ، في أغلاله ، في سجنه ، ومات طويلاً ، ثم بُعِثَ !

إنِّي مُخْبركم عنِّي بما لم تحيطوا به ، فأرْعُوه أسماعَكم[٢] ، وأحْضِروه أفهامَكم ، واستجمعوا له ، فإنَّه كان غَيبَ شيخكم ، وأنا محدِّثُكم به كيلا ييأسَ ضعيفٌ ، ولا يقنَطَ يائسٌ ؛ فإنَّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين .

* * *

لقد كنت في صدر أيَّامي شُرْطِيّاً ، وكنت في آنِفة الحَداثةِ من قبلها أتفتَّى وأتشطَّرُ ، وكنت قويّاً معصوباً في مثل جِبلَّةِ الجبلِ من غِلَظٍ وشدَّة ، وكنت قاسياً ، كأنَّ في أضلاعي جندلةً[٣] ، لا قلباً ، فلا أتذمَّم ، ولا أتأثَّم ؛ وكنت مُدمِناً على الخمر ، لأنَّها رُوحانيَّةُ من عجَز أن تكون فيه روحانيَّةٌ ، وكأنَّها إلٰهيةٌ يزوِّرُها الشَّيطانُ ـ لعنه الله ! ـ فيَخْلُق بها للنَّفس ما تحبُّ ممَّا تكره ، ويُثيبها ثواب ساعةٍ ليست في الزَّمن ، بل في خيال شاربها ؛ وكأنَّ جهل العقل نفسه في بعض ساعات الحياة ، هو ـ في عِلم الشيطان ، وتعليمِه ـ معرفة العقل نفسَه في الحياة !

فبينا أنا ذات يوم أجول في السُّوق ، والنَّاس يفُورون في بيعهم ، وشرائهم ، وأنا أرقبُ السَّارق ، وأُعِدُّ للجاني ، وأتهيَّأ للنِّزاع ؛ إذ رأيت اثنين يتلاحَيان ، وقد لَبَّب[٤] أحدهما الآخر ، فأخذت إليهما ، فسمعت المظلوم يقول للظالم : لقد سَلبتني فرَحَ بُنيَّاتي ، فسيدْعون الله عليك ، فلا تصيبُ من بعدها خيراً ، فإنِّي

(١) « أرمَّت » : بدأت تتعفَّن ، وتبلى . (ع) .

(٢) « أرعوه أسماعكم » : أصغوا إليه ، واستمعوا .

(٣) « جندلة » : صخرة .

(٤) « لبب » : لبَّب الرجلَ : جمع ثيابه عند نحره في الخصومة ، ثم جرَّه .

ما خرجت إلا اتِّباعاً لقول رسول الله ﷺ : « مَنْ خرج إلى سُوق من أسواق المسلمين ، فاشترى شيئاً ، فحمله إلى بيته ، فخصَّ به الإناث دون الذُّكور ؛ نظَرَ الله إليه ! »[١] .

قال الشَّيخ : وكنت عزَباً لا زوجةَ لي ، ولكن الآدميَّة انتبهت فيَّ ، وطمِعت في دعوةِ صالحةٍ من البُنيَّات المسكينات ، إذا أنا فرَّحتهنَّ ، ودخَلتْني لهنَّ رقةٌ شديدةٌ ، فأخذتُ للرَّجل من غريمه ؛ حتَّى رضي ، وأضعفتُ له من ذات يدي ؛ لأزيد في فرح بناته ، وقلت له وهو ينصرف : عهدٌ يحاسبك الله عليه ، ويَستوفيه لي منك ، أن تجعل بناتِك يدعون لي إذا رأيتَ فرحهنَّ بما تحمل إليهنَّ ، وقل لهنَّ : مالِك بن دينار .

وبِتُّ ليلتي أتقلَّب مفكِّراً في قول رسول الله ﷺ ، ومعانيه الكثيرة ، وحَثِّه على إكرام البنات ، وأنَّ مَنْ أكرم بناتِه كَرُمَ على الله ، وحِرْصِه أن ينشأن كريماتٍ فرِحاتٍ ، وحدَّثني هذا الحديث ليلتي تلك إلى الصُّبح ، وفكَّرت حينئذٍ في الزَّواج ، وعلمت : أنَّ الناس لا يزوّجونني من طيِّباتهم ما دمت في الخبِيثين ؛ فلمَّا أصبحت غدوت إلى سوق الجواري ، فاشتريت جاريةً نفيسةً ، ووقعتْ منِّي أحسن موقع ، ووَلدت لي بنتاً ، فشُغِفتُ بها ، وظهرت لي فيها الإنسانيَّة الكبيرة ؛ التي ليست فيَّ ، فرأيت بُعد ما بيني وبين صورتي الأولى ، ورأيتها سماويَّةً لا تملك شيئاً ، وتملك أباها ، وأمَّها ، وليس لها من الدُّنيا إلا شِبع بطنها ، وما أيسره ، ثمَّ لها بعد ذلك سرور نفسها كاملاً تَشِبُّ عليه أكثر ممَّا تَشِبُّ على الرَّضاع ؛ فعلمت من ذلك : أنَّ الَّذي تكتنِفه[٢] رحمة الله يملك بها دنيا نفسه ، فما عليه بعد ذلك أن تفوته دنيا غيره ؛ وأنَّ الَّذي يجد طهارة قلبه يجد سرور قلبه ، وتكون نفسه دائماً جديدةً على الدُّنيا ، وأنَّ الَّذي يحيي بالثِّقة تحييه الثِّقة ؛ والَّذي لا يبالي الهمَّ لا يبالي الهمُّ به ؛ وأنَّ زينة الدُّنيا ، ومتاعَها ، وغرورَها ، وما تجلب من الهمِّ ؛ كلُّ ذلك من صِغرِ العقل في الإيمان حين يكبرُ العقل في العلم !

كانت البُنيَّة بدءَ حياةٍ في بيتي وبدءَ حياةٍ في نفسي ، فلمَّا دبَّت على الأرض ؛ ازددت لها حبّاً ، وألِفتْني ، وألِفْتها ، فرُزِقت روحي منها أطهر صداقةٍ في صديقٍ ،

---

(١) في كنز العمال (١٦/٤٤٧ ـ ٤٤٥) أكثر من أربعين حديثاً في بِرِّ البنات والصبر عليهن ، وفضل ذلك وثوابه ، فانظرها إن شئت .

(٢) « تكتنفه » : تصونه ، وتحميه ، وتحوطه .

تتجدَّد للقلب كلَّ يوم ، بل كلَّ ساعة ، ولا تكون إلا لمحضِ سرور القلب دون مطامِعه ، فتُمِدُّه بالحياة نفسها ، لا بأشياء الحياة ، فلا تزيد الأشياء في المحبَّة ، ولا تنقص منها ، على خلاف ما يكون في الأصدقاء بعضِهم من بعضٍ ، واختلافهم على المَضرَّة ، والمنفعة .

* * *

قال الشَّيخ : وجَهدتُ أن أترك الخمر ، فلم يأت لي ، ولم أستطعه ؛ إذ كنت منهمكاً على شربها ، ولكنَّ حبَّ ابنتي وضع في الخمر إثمها الَّذي وضعتْه فيها الشَّريعة ، فكرِهتُها كُرْهاً شديداً ، وأصبحت كالمكرَه عليها . ولم تعُد فيها نشوتها ، ولا رِيُّها ؛ وكانت الصَّغيرة في تمزيق أخيِلتها أبرع من الشَّيطان في حوك هذه الأخيلة ، وكأنَّما جرَّتني يدها جرَّاً حتَّى أبعدتني عن المنزلة الخمرية ؛ الَّتي كان الشَّيطان وضعني فيها ، فانتقلت من الاستهتار ، والمكابرة ، وعدم المبالاة إلى النَّدم ، والتحوُّب(١) ، والتَّأثُّم ، وكنت من بعدها كلَّما وضعْتُ المُسْكِر ، وهممتُ به ؛ دبَّت ابنتي إلى مجلسي ؛ فأنظر إليها ، وتنتشِر عليها نفسي من رقَّةٍ ، ورحمةٍ ، فأرقبُ ما تصنع ، فتجيء ، فتجاذبني الكأسَ ؛ حتَّى تُهرقها(٢) على ثوبي ، وأراني لا أغضب ؛ إذا كان هذا يسرُّها ، ويُضحكها ، فأسرُّ لها ، وأضحك .

ودام هذا منِّي ومنها ، فأصبحت في المنزلة بين المنزلتين : أشربُ مرَّةً ، وأترك مِراراً ، وجعلت أستقيم على ذلك ؛ إذ كانت النَّشْوة بابنتي أكبرَ من النَّشوة بالزُّجاجة ، وإذ كنت كلَّما رجعت إلى نفسي ، وتدبَّرتُ أمري ؛ أستعيذ بالله أن تعقِل ابنتي معنى الخمر يوماً ، فأكونَ قد نجَّست أيامها ، ثمَّ أتقدَّم إلى الله وعليَّ ذنوبها فوق ذنوبي ، ويترحَّم النَّاسُ على آبائهم ، وتلعنني ؛ إذ لم أكن لها كالآباء ، فأكون قد وُجِدْتُ في الدنيا مرَّة واحدة ، وهلكتُ مرَّتين .

ومضيت على ذلك وأنا أُصْلح بها شيئاً فشيئاً ، وكلَّما كبِرت ؛ كبُرتْ فضيلتي ، فلمَّا تمَّ لها سنتان ؛ ماتت !

* * *

---

(١) « التحوب » : ترك ما يُوقع في الإثم .

(٢) « تهرقها » : تصبّها .

قال الرَّاوي : وسكت الشَّيخ ، فعَلِقت به الأبصار ، ووقفت أنفاسُ النَّاسِ على شفاههم ، وكأنَّما ماتت لحظاتٌ من الزَّمن لِذكرِ موتِ الطِّفلة ، وخامَرَ المجلس مثلُ السُّكر بهذه الكأس المُذهِلة ، ولكنَّ الطِّفلة دبَّت من عالم الغيب ، كما كانت تصنع ، وجذبَت الكأس ، وأهرقتها ، فانتبه النَّاس ، وصاحوا : ماتت ، فكان ماذا ؟

قال الشَّيخ : فأكمدني[١] الحزنُ عليها ، ووَهَن جأشي[٢] ، ولم يكن لي من قوَّةِ الرُّوح ، والإيمان ما أتأسَّى به ، فضاعف الجهل أحزاني ، وجعل مصيبتي مصائب ، والإيمانُ وحدَه هو أكبر علوم الحياة ، يُبصِّرك إن عميت في الحادثة ، ويهديك إن ضَلَلْت عن السَّكينة ، ويجعلك صَديق نفسِك ، تكون وإيَّاها على المصيبة ، لا عدوَّها ؛ تكون المصيبةُ وإيَّاها عليك ، وإذا أخرجت الليالي من الأحزان والهموم عَسْكَرَ ظلامِها لقتالِ نفسٍ ، أو مُحاصَرتها ؛ فما يدفع المالُ ، ولا تردُّ القوَّةُ ، ولا يمنع السُّلطان ، ولا يكونُ شيءٌ حينئذٍ أضعفَ من قوَّة القويِّ ، ولا أضيعَ من حيلةِ المحتال ، ولا أفقرَ من غِنى الغنيِّ ، ولا أجهلَ من علم العالم ، ويبقى الجهد ، والحيلةُ ، والقوَّة ، والعلمُ ، والغِنى ، والسُّلطانُ للإيمان وحدَه ، فهو يكسر الحادث ويقلِّل من شأنه ، ويؤيِّد النَّفس ، ويضاعف من قوَّتها ، ويَردُّ قدَر الله إلى حكمةِ الله ، فلا يلبث ما جاء أن يرجع ، وتعود النَّفس من الرِّضا بالقدر ، والإيمان به ، كأنَّما تشهد ما يقع أمامها ، لا ما يقع فيها .

قال الشَّيخ : ورجعت بجهلي إلى شرٍّ مما كنت فيه ، وكانت أحزاني أفراحَ الشيطان ، وأراد ـ أخزاه الله ـ أن يَفْتَنَّ في أساليب فرحه ، فلمَّا كانت ليلةُ النِّصف من شعبانَ ـ وكانت ليلةَ جمعة ، وكانت كأوَّل نور الفجر من أنوار رمضان ـ سوَّل لي الشَّيطانُ أن أسكر سكْرةً ما مثلها ؛ فبتُّ كالميت ممَّا ثمِلتُ[٣] ، وقذفتني أحلامٌ إلى أحلامٍ ، ثمَّ رأيت القيامة ، والحشر ، وقد وَلدت القبورُ مَنْ فيها ، وسِيقَ النَّاسُ ، وأنا معهم ، وليس وراء ما بي من الكرب غايةٌ ؛ وسمعت خلفي زَفيراً كفَحيح[٤]

---

(١) « أكمدني » : أغمني ، وأمرض قلبي .
(٢) « جأشي » : الجأش : القلب ، والنَّفس .
(٣) « ثملت » : ثَمِلَ : سَكِر ، وأخذ فيه الشراب .
(٤) « فحيح » : هو صوت الأفعى مِنْ فيها .

الأفعى ، فالتفتُّ فإذا بتنِّينٍ[١] عظيمٍ ما يكون أعظمُ منه ؛ طويلٌ ، كالنَّخلة السَّحوق ، أسودُ ، أزرقُ ، يُرسِل الموت من عينيه الحمراوين كالدَّم ، وفي فمه مثل الرِّماح من أنيابه ، ولِجَوفِه حرٌّ شدِيدٌ ، لو زفر به على الأرض ما نبتت في الأرض خضراء ، وقد فتح فاه ، ونفخ جوفه ، وجاء مُسرعاً يريد أن يَلتقمني ، فمررتُ بين يديه هارباً فزعاً ؛ فإذا أنا بشيخٍ هَرِمٍ ، يكاد يموت ضَعفاً ، فعُذتُ به ، وقلت : أجرني ، وأغِثني ! فقال : أنا ضعيفٌ كما ترى ، وما أقدِر على هذا الجبَّار ، ولكن مُرَّ ، وأسرعْ ، فلعلَّ الله أن يسبِّب لك أسباباً للنَّجاة .

فولَّيت هارباً ، وأشرفت على النَّار ، وهي الهول الأكبر ، فرجعت أشتدُّ هرباً والتِّنين على أثري ؛ ولقيتُ ذلك الشَّيخ مرَّةً أخرى ، فاستجرتُ به ، فبكى من الرَّحمة لي ، وقال : أنا ضعيفٌ كما ترى ، وما أقدر على هذا الجبَّار ، ولكن اهرب إلى هذا الجبل ، فلعلَّ الله يُحدث أمراً .

فنظرت فإذا جبلٌ كالدَّار العظيمة ، له كُوًى[٢] ، عليها سُتورٌ ، وهو يَبرُق كشعاع الجوهر ، فأسرعتُ إليه والتِّنين من ورائي ، فلمَّا شارفتُ الجبلَ فُتِحَتِ الكُوى ، ورُفعت السُّتور ، وأشرفتْ عليَّ وجوهُ أطفالٍ كالأقمار ، وقرب التِّنينُ منِّي ، وصرتُ في هواءِ جوفه ، وهو يَتضرَّم[٣] عليَّ ، ولم يبق إلا أن يأخذني ؛ فتصايح الأطفالُ جميعاً : يا فاطمة ! يا فاطمة !

قال الشَّيخ : فإذا ابنتي الَّتي ماتت قد أشرفت عليَّ ، فلمَّا رأت ما أنا فيه ؛ صاحت ، وبكتْ ، ثمَّ وثبت كرَمْيةِ السَّهم ، فجاءت بين يديَّ ، ومدَّت إليَّ شِمالها ، فتعلَّقتُ بها ، ومدَّت يمينَها إلى التِّنين ، فولَّى هارباً ، وأجلستْني ، وأنا كالميِّت من الخوف ، والفزع ، وقعدَتْ في حجري ، كما كانت تصنع في الحياة ، وضربتْ بيدها إلى لحيتي ، وقالت : يا أبت ! ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ[٤] آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟﴾ [الحديد : ١٦] .

---

(١) « تنين » : ضرب من الحيات العظيمة .
(٢) « كوى » : جمع كوَّة ، وهي خَرق في الجدار ، يدخل فيه الهواء والضوء .
(٣) « يتضرم » : يلتهب .
(٤) « ألم يأن » : ألم يحنْ وَقْت . « تخشع » : تخضع ، وترقّ ، وتلين .

فبكيتُ ، وقلتُ : يا بُنيّة ! أخبريني عن هذا التِّنّين ؛ الذي أراد هلاكي . قالت : ذاك عملُك السُّوءُ الخبيث ، أنت قوّيْته حتّى بلغ هذا الهولَ الهائل ، والأعمال تَرجعُ هنا أجساماً كما رأيت ، قلت : فذاك الشَّيخُ الضَّعيفُ ؛ الَّذي استجرْتُ به ، ولم يُجرني ؟ قالت : يا أبت ! ذاك عملك الصَّالح ، أنت أضعفتَه فضعُفَ حتّى لم يكن له طاقةٌ أن يُغيثَك من عملك السَّيِّء ؛ ولو لم أكن لك هنا ، ولو لم تكن اتبعتَ قولَ رسول الله ﷺ فيمن فرّحَ بناته المسكينات الضّعيفات ؛ لما كانت لك هنا شِمالٌ تتعلّق بها ، ويمينٌ تَطرُد عنك .

* * *

قال الشَّيخ : وانتبهت من نومي فَزِعاً ألعن ما أنا فيه ، ولا أراني أستقرُّ كأنّي طريدةُ عملي السَّيِّئ ؛ كلّما هَرَبت منه ، هَرَبت به ؛ وأين المَهْرَبُ من النَّدم ؛ الَّذي كان نائماً في القلب ، واستيقظ للقلب ؟

وأمّلتُ في رحمة الله أن أربح من رأس مالٍ خاسرٍ ، وقلت في نفسي : **إنَّ يوماً باقياً من العمر هو للمؤمن عُمرٌ ما ينبغي أن يُستهان به** ؛ وصحّحت النِّيّةَ على التَّوبة ؛ لأرجعَ الشَّبابَ إلى ذلك الشيخ الضَّعيف ، وأسمِّنَ عظامه ، حتى إذا استجرْتُ به ؛ أجارني ، ولم يقل : « أنا ضعيفٌ كما ترى ! » .

وسألت فَدُلِلْتُ على أبي سعيدٍ الحسن بن أبي الحسن البصريِّ ؛ سيِّد البقيَّةِ من التَّابعين ؛ وقيل لي : إنَّه جَمع كلَّ علمٍ وفنٍّ إلى الزُّهد ، والورع ، والعبادة ، وإن لسانَه السِّحر ، وإن شخصَه المغناطيس ، وإنَّه ينطق بالحكمة ، كأنَّ في صدره إنجيلاً لم يُنزَّل ، وإن أمَّه كانت مولاةً لأمِّ سَلمة زوج النَّبيِّ ﷺ ، فكانت ربّما غابت أمُّه في حاجة ، فيبكي ، فترضعه أمُّ سلمة تُعلِّله[1] بثديها ، فيدرُّ عليه ، فكانت بينه وبين بركة النُّبوَّة صِلَةٌ .

وغدوتُ إلى المسجد ، والحسنُ في حلقته يقصُّ ، ويتكلَّم ، فجلست حيث انتهى بي المجلس . وما كان غير بعيدٍ حتّى عَرَتني نفضةٌ كنفضة الحمَّى ؛ إذ قرأ الشَّيخ هذه الآية : ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد : ١٦] ؛ فلو لفظتني الأرضُ من بطنها ، وانشقَّ عنِّي القبرُ بعد الموت ،

---

(١) « تعلله » : تشغله ، وتُلْهيه .

ما رأيت الدُّنيا أعجبَ ممَّا طالعتني في تلك الساعة ؛ وأخذ الشَّيخ يفسِّر الآية ، فصنع بي كلامُه ما لو بُعِث نبيٌّ من أجلي خاصَّةً ؛ لما صَنع أكثرَ منه .

وكلامُ الحسنِ غيرُ كلام النَّاس، وغير كلام العلماء ؛ فإنَّه يتكلَّم من قلبه ، ومن روحه ، ومن وجهه ، ولسانه ، وناهيكم من رجلٍ خاشعٍ مُتَصَدِّعٍ من خشية الله ، لم يكن يُرَى مُقبلاً إلا وكأنَّه أسيرٌ أمروا بضرب عنقه ، وإذا ذُكِرَتِ النَّار فكأنَّها لم تخلق إلا له وحده ؛ رجلٍ كان في الحياة لتتكلَّم الحياة بلسانه أصدق كلماتها .

فصاح صائح : يا أبا يحيى ! التَّفسير ! التفسير ! وصاح المؤذِّن : اللهُ أكبر . فقطع الشَّيخ ، وقال : التَّفسير ـ إن شاء الله ـ في المجلس الآتي .

* * *